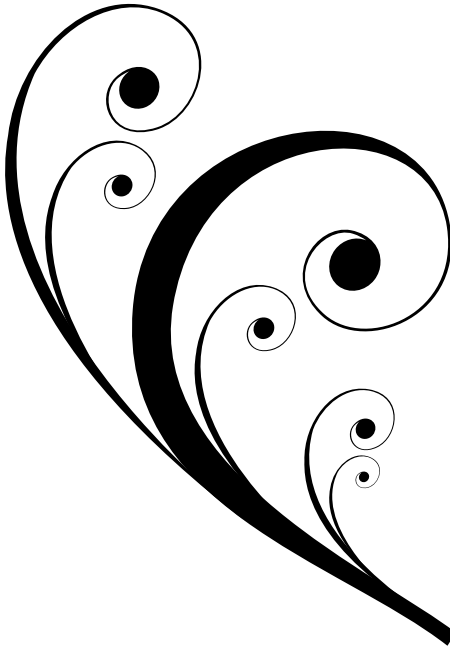

بيلوماتيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م
ردمك 4 - 317 - 79 – 9947 - 978 (ISBN)

اسم العمل: ببلومانيا
اسم المؤلف: حنان بن زعمة
تصميم الغلاف: عبد النور شلالو
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: خليل زغدان

صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 0666.76.28.50/ 033 85 65 70

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

الكاتبة: حنان بن زعمة

بيلوماتيا

المثقف
للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى سمائي أمي

إلى أرضي أبي

إلى نجومي إخوتي

إلى عائلتي وصديقاتي وكلّ أحبائي

إلى كلّ تلك التفاصيل الصغيرة في حياتي

هي بمثابة سديم لي

مخيف كيف أننا نسير في نفق الزمن، كيف أن قطار حياتنا يسير بسرعة، فترى من وراء النافذة ذكرياتك تضيء ويزداد امتداد وميضها مع زيادة سرعة القطار لكن الشّيء الجميل أن الركاب الذين داخل القطار لا يتغيّرون مهما كانت الظروف مهما كان ما يحسون به ، من اشتياق أو حنين أو حتى ألم، لا يتراجعون ولا يرحلون، صامدون في أماكنهم حتى النهاية فقط ليصلوا إلى آخر محطة لهم، إنهم نفس الأشخاص الذين هم الآن بجانبك تتشجّع برؤيتك لأفعالهم وإنجازاتهم، لتبقى أنت أيضا صامدا عبر مسار سكّة الحياة، حتى نهاية الرّحلة.

حتّى لا يبقى من الضّعف شيء

تسلّلت أشعة الشمس من النافذة الزجاجية واخترقت عينيّ اللتين أرهقهما السهر، حاولت عمدا أن أهرب من ذلك النور لأحظى بمزيد من النوم، لكن انتهى بي المطاف ملقاة على الأرض قد اكتسحني الألم من شدة الارتطام بالأرض، استيقظت أريج على ذلك الصوت المزعج الذي سببته لم يأخذ منها الوقت إلا لحظات حتى فهمت الموقف الذي تعرّضت له فراحت تصرخ من شدة الضحك؛

و كيف أسكت هذه المجنونة سوى بضربها بوسادة، وإغلاق فمها بالوسادة الأخرى.

سمعنا الخالة نهى تنادينا من الأسفل لتناول الفطور، إنها أم أريج وهي ربة بيت رائعة، وأيضا طاهية محترفة ،عندما تنظّف وترتّب البيت كأنما يد ساحرة لامست البيت فأصبح لماعا ويوحي بالهدوء وراحة البال، وأيضا هي أم رائعة لبنت وولد اسمه جواد.

أريـج هـي صديقتـي بـل بمثابـة أخـت لـي بمـا أننـي لا أملـك واحـدة، ترعرعنـا معـا منـذ الصغـر وهـي جارتنـا في السّـكن؛ كنـت قـد قضيـت ليلة البارحـة في بيتها، لم ننم حتى بلغت السـاعة الرابعـة صباحا، بتنا نتسـامر ونتبـادل أطراف الحديث، فالبرغم من أنني أقضي معظم أوقاتي معها إلا أن حكاياتنا وأحاديثنا لا تنتهي .
مـا صدّقـت نفسـي أن خرجـت مـن غرفتهـا حتـى بـدوت وكأننـي ألعـب رياضـة القفـز على الحواجز؛
كنـت أنطّ هنـا وهنـاك محاولـة الوصـول إلـى بـاب الغرفـة لأذهب إلـى الحمـام وأغتسـل، فالكتـب كانـت منتشـرة في الغرفـة للحـدّ الـذي لا تسـتطيع فيـه رؤيـة البـلاط، لـم تكفهـا مكتبتهـا الخاصـة بهـا والتـي كانـت مثقلـة بالكتـب ولا حتـى رفـوف وخزانـات غرفتهـا بـل وحتـى غرفـة الجلـوس لـم تسـلم مـن الكتـب، و قـد اشـتكت لـي الخالـة نهـى ذات يـوم بأنهـا قـد وجـدت أربـع روايـات محشـورة مـع الصحـون في خزانـة المطبـخ مـا جعلهـا تثـور ذلـك اليـوم وتمتنـع عـن إعـداد العشـاء لتلـك الليلـة بسـبب إهمـال أريـج.
بـدأت رائحـة الخبـز المحمّـص تصـل أنفـي مـا جعلنـي أسـرع لأغسـل وجهـي، إلا أن سـعال أريـج الحـاد اسـتوقفني فعـدت أدراجـي إلـى الغرفـة لأسـتطلع الأمـر.

_ أريج ما الأمر؟ هل عاد السعال مجدّدا؟؟ ألم تقولي لي أن الطبيب قد أعطاك دواء لإيقافه؟

_ لا أدري !ربما لأنني جلست مطولا في الشرفة ليلة سقوط المطر ما سبب بعودتها.

_ هيا فلتنهضي ستخف بعد شربك شيئا ساخنا.

و نحن نتناول الإفطار نزل جواد بخطى متثاقلة من على الدرج وعيناه مغمضتان، يبدو أنه هو الآخر لم يحظ بقسط وافر من النوم ليلة أمس فقد أمضى ليلته بضرب الجدار الفاصل بين غرفته وغرفة أريج طالبا منا التوقف عن إصدار الضّجيج فلديه امتحان هام هذا اليوم.

جواد يدرس في الجامعة بينما أنا وأريج لازلنا في الثانوية

_أسرع يا جواد، تناول إفطارك ودعني أوصلك أنت والصبيتان في طريقي (السيد غسان)

يعمل السيد غسان والد أريج مديرا لإحدى الشركات المتخصّصة بالهندسة الزراعية.

كانت الخالة نهى تسألني عن أحوال خالتي فجأة استوقفتنا أريج بسعالها الحاد مرة أخرى والذي لم تستطع التحكم فيه وبدا على وجهها إرهاق وتعب شديد.

_يبدو أنك مرضت مرة أخرى، سأضطر لاستدعاء الطبيب

ليفحصك مع أنّ آخر مرة جاء فيها لمعاينتك كانت منذ ثلاثة أيام فقط، ستضطرين للتغيب عن حصصك لليوم.

- لا يا أمي أنا بخير وسأذهب للثانوية.

- يكفي هذا إن كنت تريدين أن تكوني بخير فاعتني بصحتك وأعطها جانبا من اهتمامك .

_ طبعا لن يحدث هذا يا أمي، ما عرفناها هكذا أبدا (جواد بعجرفة)

_ ليس شأنك أيها الغبي ...

_ هاااي ، تتشاجران مع إشراقة الشّمس جواد؛ سوسن ، اتبعاني إلى السيارة تأخّر الوقت (السيد غسان وهو يحاول إيقاف النقاش الحاد بين أريج وجواد)؛

فتح جواد الباب وكنت أنا خلفه حتى توقف فجأة فور سماعه لأريج وهي تواصل شكواها لأمّها

_ أمي لقد ازداد الألم في صدري أنا حقا لم أعد بخير.

وطبعا من المستحيل أن يسمع جواد أخته تشتكي ألم جسدها دون أن يقول مقولته المعتادة:

_ هذا لأنك ببلومانية يا حمقاء.

ببلومانيا

كتعريف غير مخيف ومحبّب إلى القلب ببلومانيا هو المرض الجميل أو داء العباقرة.

كتعريف واقعي هو مرض يصيب الأشخاص المولعين بالكتب والمدمنين عليها بشكل غير معقول، يصبح المصاب بهذا المرض مهووسا بجمع الكتب، ما إن يقع بين ناظريه كتاب ما فإنه يصاب برغبة في تملّكه، حتى ولو لم تكن له نية في قراءته، وقد تجده يجمع النسخ من الكتب دون أن يهتم لتكرارها في مجموعته الخاصة من الكتب التي يمتلكها، المهم أن تتكدس الكتب لديه، فوجودها أمام مرأى ناظريه يشعره بحالة من السرور و السعادة، السيد **Thomas Phillips** كان مصابا بهذا المرض كان يملك حوالي 160 ألف كتاب أقيم مزاد لبيع هذه الكتب بعد وفاته واستمرّ هذا المزاد لمدة 100عام.

غالبا ما يقوم صاحب هذا المرض بقراءة الكتب مرارا وتكرارا طبعا إنه لأمر عادي أن تكون مولعا بالكتب والقراءة، كما أنه لاعيب في قراءة الكتاب عدة مرات بل بالعكس، فبذلك أنت تبتغي المعرفة لكن المبالغة في هذا الشيء لدرجة تخليك عن ممارسة حياتك بشكل طبيعي يعدّ أمرا غير عادي.

إنه لأمر رائع أن يكون للانسان اهتمامات بجمع مثل هذه الأشياء الجميلة فهي تبعث في الإنسان الأمل والراحة، فمثل هذه التفاصيل الصغيرة هي بمثابة حياة للبعض نحن فقط نراها مجرّد عبث، وأظنّ أن لكل منا اهتمام بمثل هذه الأشياء فهناك من يجمع الطوابع، وآخرون يجمعون الأصداف والحجر الملوّن وأذكر أن والدي ذات مرة أخبرني أن صديقه يحبّ جمع الأقلام بعد نفادها من الحبر، لكن ما لا نعرفه أن التمسّك بفعل هذه الأشياء قد يكون مضرّا لنا ولمن حولنا وقد تكون عواقبه وخيمة وندفع ثمنه غاليا، غاليا جدا، وقد يكون الثمن حياتنا تتساءلون كيف؟

مرض ببلومانيا هو المرض الذي أصيبت به صديقتي الغالية أريج وقد لازمها طوال مراحل حياتها لشدّة هوسها بجمع الكتب، كانت تنسى فعل واجباتها ليس الواجبات المدرسية فقط و إنما الواجبات التي ينبغي على كلّ فرد القيام بها ليحيا في هذه الدنيا ، إنه واجب الاهتمام بالصحة خاصة و أن جسم أريج ضعيف في مقاومة الأمراض منذ صغرها ، غالبا ما كانت تتخلّى عن وجبات الطعام اليومية، تتخلى عن الاستحمام والنوم والراحة التي كان من المفروض أن تلتزم بها لتتماثل بالشفاء وتقوي مناعتها، كانت الكتب تأخذ وقتا كبيرا من

يومها ها هي اليوم ترتبهم حسب اللون لتعيد ترتيبهم في يوم آخر على حسب أبجدية الحروف، تنفض الغبار عليهم كل يوم وتواصل التحديق والنظر إليهم،
و أذكر ذات مرّة أنها بقيت تنتظر فتح إحدى المكتبات لمدّة ثلاث ساعات تحت المطر المتساقط والرياح الباردة، التي كانت تهبّ من كل جهة بعد أن علمت أنه سيحضر إحدى الكتب التي تمّ نشرها حديثا ولم تكن تملك نسخة منها.
حين رأت أن صاحب المكتبة تأخّر في فتحها طلبت مني يومها أن أخبر عائلتها بأنها عندي في البيت ووعدتني بأن الأمر لن يأخذ سوى ساعة، و لأنها تأخّرت ذهبت لأتفقدها، كانت تقوم بالنفخ في يديها لتدفئتهما و الهواء يداعب شعرها و يطيره عاليا، لم تكن ترتدي ملابس صوفية اكتفت فقط بسترة خفيفة لم تكن لتحميها من برد ذلك اليوم، أنا يومها لم أكن أفكّر في صحتها ولا في معاناتها وهي تنتظر، كنت فقط أحسدها لوفائها للكتب وكيف تقف صامدة لأجل شيء اختارته أن يكون سببا في سعادتها.
أنا لست ببلومانية لكنني عاشقة للكتب قرأت عديد الروايات وكتب التنمية البشرية والموسوعات ولكن في كلّ مرة أرى تصرّفات أريج أحس أنني مقصرة في حق الكتب، طبعا هذا الشعور لازمني فترة من الزمن ثم زال بعد زوال تلك الأيام.

اسمي سوسن يتيمة الأبوين وأعيش مع خالتي في بيت جميل مفعم بالنشاط والأمل والعمل، تعمل خالتي محامية وقد تولت رعايتي بعد ما فقدت والديّ في إحدى الليالي التي تأخرت فيها أمي وهي تقوم بعملها في المستشفى بقسم الطوارئ كونها طبيبة ولأن الجو كان عاصفا، أراد أبي أن يذهب ليقلها إلى المنزل وفي طريق عودتهما لقيا حتفهما إثر حادث مرور مروّع ، كان ذلك في السابع عشر من شهر آذار، كان عمري عندها سبع سنوات.

تبلغ خالتي من العمر ثمانية وثلاثين سنة بالرغم من أنني أشكّ في عمرها نظرا لتصرّفاتها التي توحي أنها في سن المراهقة لكن كان ذلك لصالحي فهي تشاركني عاداتي اليومية ونمضي أوقاتا مليئة بالمغامرات، والأحداث الشيّقة كما أنها تعشق الأفلام الخيالية مثلي تماما، نسهر في الكثير من الليالي ونحن نتابعها وأحيانا تأخذني إلى السينما، نطبخ معا و ننظف المنزل معا،

قريبتان إلى بعضنا البعض لدرجة أنني لا أناديها خالتي بل أناديها مباشرة باسمها رؤى ، أبوح لها بأسراري وأشكو لها مشاكلي وأجد عندها الحلّ دائما، لكنّها تختلف عني في هذا الجانب فهي لا تبوح لي بأسرارها ولا تحدّثني عن

عملها، كثيرا ما يأخذني الفضول لأعرف ولو القليل عن مهنة المحاماة فأسألها لكنها تكتفي بجملة أو جملتين وتغيّر الحديث نهائيا مع أنني أعلم أن هذه المهنة مليئة بالأحداث والقصص لكثرة القضايا المحمولة على عاتق من يمارسها وتتنوع هذه الأحداث مع تنوع أفراد المجتمع، وإلا ما يجد المحامي قصّة تؤثر فيه وتجذبه فيهم بسردها على أفراد أسرته، ولكن خالتي لا و ألف لا.

بعد يوم شاقّ كنت قد قضيته في التبضّع ودخول المحلّات والمتاجر الواحد تلو الآخر، قرّرت العودة إلى المنزل و أخذ قسط من الراحة، دخلت البيت وأغلقت الباب من خلفي وإذا بالمكان مظلم على غير العادة، فحسب علمي أن رؤى لا تعمل مساء وبالتالي تخيّلت أنها في المطبخ تعد العشاء وصوت حنجرتها الذهبية يعلو المكان و هي تغني و تدندن لكنها لم تكن هناك، لوهلة ظننت أن أمرا طارئا في العمل قد حصل فتأخّرت في العودة لكن عند إشعالي للضوء في غرفة الجلوس قفزت خائفة مرعوبة بعد سماعي صوتا حزينا يقول لي:

_ أطفئي النور.

فلمحتها جالسة على الأريكة ممسكة ساقيها بيدها وشعرها مسدول يكاد يغطّي وجهها، لولا أن ملامح الحزن شقّت طريقها بين تلك الخصلات.

_ ما الأمر ما الذي جرى؟ هل أنت بخير.

_ لا شيء أنا بخير.

_ لا لست بخير، لم أنت حزينة؟ ليس من عاداتك أن تجلسي وحدك في الظلام.

_اسمعي أخبرتك أن لا شيء حدث فقط أطفئي الأنوار ودعيني وشأني.

- تعتقدين أن الأمور تحلّ بهذه الطريقة، أبدا، أنت تزيدين الأمر سوءا
- هل أنت مدركة لشدة الألم الذي بداخلي ومدى الصعوبات التي أمرّ بها الآن؟ لا، إذن فلتغادري حالا (رؤى وهي تصرخ)
لم أتحمل غضبها غير المبرر ورفعت صوتي :أنت لست الوحيدة التي تعاني ولماذا تصرخين هكذا
ثم أطفأت النور لكي لا أرى المزيد من ردات الفعل القاسية، بالرغم من أنني انزعجت من طريقة كلامها إلا أنني حقا لم أبالي سوى لألمها ولما يشغل تفكيرها كلّ هذا الحد،
صعدت غرفتي وقمت بغلق النافذة وإسدال الستائر وأغلقت الباب وأطفأت الأنوار ووضعت السجادة ورحت أصلّي، أذكر أنها أوّل مرة جلست فيها مطوّلا بعد الصلاة ورحت أدعو وأبكي بحرقة، مرّت في ذاكرتي عديد الصور.
تذكرت أمي وأبي والجزائر الأرض التي ولدت بها وقضيت فيها بعضا من طفولتي، إنها الحياة، تأمر الوقت بالتوقف عند عودة الإنسان إلى تفاصيل الماضي فيرفع القلب قضية بمعاقبة أرواحنا بما يسمى بالاشتياق، كان كلّ شيء يدعو إلى الاكتئاب والألم سوى مناجاة الله التي كانت توقد شمعة في داخلي، كانت كافية بأن أرمي نفسي على السرير وأنام نومة أطفال.

صباحها لم أشإ الخروج من غرفتي خشية ملاقاتها لكن سرعان ما غيّرت رأيي وتوجهت فورا إلى الأسفل،
- أيتها الكسول، لم تأخّرتي في النوم ثمّ لم عيناك منتفختان هكذا، دعيني أرى، تشبهين الكوالا تماما هههه
يا إلهي نسيت كلّ شيء و لم تعد حزينة ولا غاضبة.
- هيا لنتناول الفطور تأخر الوقت،
-حسنا ، ثم إنني ... آسفة على ماقلته البارحة، أظن أنني لم أراع ظروفك،
لا بأس عليك يا سوسن فأنا بخير وأنا أيضا آسفة،
سعدت بأن الأمر انتهى بلطف ولم تكبر المشكلة.
أريج :هيا يا سوسن أسرعي لقد تأخّرنا.
- قاااااادمة؛
أغلقت الباب بسرعة و رميت المفاتيح في حقيبتي ها أنا ذا، لننطلق قفزت من على درج الفسحة الأمامية للبيت متخطية درجتين، سرنا بخطى متسارعة حتى لا يفوتنا المترو.
بعد نزولنا منه بقيت لنا مسافة قليلة للوصول إلى صالة التزلج على الجليد، كنا أنا و أريج قد اتفقنا على إمضاء اليوم هناك،
- أووه فعلا أنا متعبة.

- كفّي عن التذمر يا سوسن كدنا نصل.
- حسنا، أخبريني لماذا قصصت شعرك يا أريج؟لا أنكر أنك بدوت جميلة بالشعر القصير لكني أعلم جيدا كم كان يعني لك الشعر الطويل،
- سأجيبك، لكن عليك أن تجيبي أولا عن هذا السؤال»ماذا تعني الحياة بالنسبة لك ؟»
- سؤال مفاجئ ولا دخل له بحديثنا مطلقا، لكن سأجيب، مما لا شك فيه أن كلمة حياة متكونة من أربعة أحرف وفي نظري هي كالتالي

الحاء:حب

الياء :يسر

الألف :ألم

التاء :تفاؤل

و بذلك فهي ترمز لثلاثة معاني جميلة إبجابية ومعنى آخر سلبي و سيء، ونلاحظ أن المعاني الإيجابية تطغى على المعاني السلبية وهذا ما يجب أن يكون عليه واقع الحياة فهي دائما مليئة بالأشياء الجميلة وبعض من الأشياء غير الجميلة بل وعلينا استغلال الجيد منها في القضاء على الجزء السيء،
- جميل، إذا سأجيب على سؤالك،

فعلا لا أدري لماذا يربطون قص الشعر بالحزن والضعف فأنا أرى أنه كلما زادت قوتك كلما زاد إصرارك على قص شعرك لأن ذلك يدل أنك تجاوزت مرحلة الفقد،

الشعر القصير يمنحك الثقة والعزم على إنجاز المزيد من الأعمال ولذلك سألتك عن معنى الحياة، أرى أن الناس يفتقرون إلى الشعور بمعنى الحياة، إنهم يعتمدون على التقليد فقط، تقليد المشاهير من ممثلين ولاعبين وغيرهم دون النظر إلى ما يرضيهم ويفرحهم.

انتشرت هذه السنة موضة الشعر الطويل وأنا أردت أن أخالف هذه الموضة لأبين أن لحياتي معنى، ويهمني أن أعيشها بطريقتي حتى في التفاصيل الصغيرة كالشعر مثلا.

– أمممم، فهمت، يكفينا فلسفة لهذا اليوم، قلبي سيتوقف من شدة تحمسي للتزلج.

بعد مرور عدة أيام ، اتصلت بي أريج وهي تبكي عرفت أن هناك شيئا يحدث، أسرعت إلى بيتها فوجدت أمها راكعة على الأرض تذرف دموعها ووالدها يضرب الجدار بقبضة يده ،

– ما الأمر، مالذي حدث ؟؟

طرحت السؤال لكن لا أحد يجيب.

أسرعت بالصعود إلى غرفة أريج، فتحت الباب بعنف فوجدتها واقفة تنظر عبر النافذة استدارت فجأة وهرعت لتعانقني، لم أفهم شيئا وخوفا مما سأسمع لم أسألها، بعد لحظات ابتعدت عني قليلا وقالت بهمس:

– أ....نا ... مصابة .... ب..السل

من السخافة أن تواسي شخصا مصابا بالهلع بعد دقائق من سماعه لخبر إصابته بمرض خطير،

لم أشعر بنفسي حتى بدأت دموعي تنهمر دون توقف، تخيلت كيف ستكون الأيام القادمة، خفت ألّا تشفى من مرضها،

فجأة !سمعنا صوت صراخ جواد و هو يتمتم كلمات لم نسمعها بوضوح لامتزاجها بالغضب،

هبطت مسرعة لأرى ما يحدث بالأسفل بينما أريج بقيت مكانها.

أسرع جواد إلى المطبخ و بدأ يبحث هنا وهناك، أحضر

قداحة وأعواد ثقاب أخذهما في جيبه وخرج إلى المرآب أحضر معه قارورة مملوءة بسائل، دخل مكتبة أريج وصب كل ذلك السائل على الرفوف وعلى المكتب وعلى الأرض بعدها أشعل عود ثقاب ورماه

أصابنا الذهول، استدرت في فزع إلى الخالة نهى وإذا بي أرى أريج ساكنة في محلها وعيناها تعكسان شرر النيران و كأنهما هما المحترقتان.

أتخيل حجم الألم الذي أضيف إلى قلبها الصغير،

ثم فجأة سعلت سعلة نتج عنها خروج الدم من فمها وسقطت مغمى عليها

بسعالها الحاد مع الدم تبيّن فعلا أنها مصابة بالسل وأن سوء التغذية وعدم الراحة أديا إلى تأزم الوضع في جسمها.

حرّكت الرياح أجراس الشتاء معلنة عن بداية موسم الأمطار والثلوج، موسم إشعال الحطب والجلوس أمام تلك النيران الملتهبة وسماع فرقعة احتراق الحطب مع ارتشاف فنجان حليب بالشكولاطة والتغلغل في خبايا الذكريات التي قرّرت مشاركتي في السهرة والاستمتاع بجو الدفئ ، في صباح اليوم التالي خرجت مسرعة من المنزل للّحاق بحافلة المدرسة أكملت يومي هناك وعدت أدراجي على الساعة الخامسة ولأن السماء كانت تمطر والجو يسوده شيء من الظلام، قررت أن أرجع إلى المنزل مشيا لأن ذلك الجو يبعث في نفسي راحة كبيرة، رحت أتأمل واجهات المحلات، استنشقت الهواء فكان ممزوجا برائحة الكعك المحلّى فدخلت عند الخباز واشتريت منه لي ولخالتي.

وأكملت طريقي، لمحت فتاة شابة تحمل كتابا لمحت الكلمات المنقوشة على غلافه فكانت بعنوان الرقص مع الحياة، إنه الكتاب الذي أرادت أريج أن تقتنيه سألت تلك الفتاة عن مكان المكتبة التي اشترته منه، ولحسن حظي كانت المكتبة قريبة من المنطقة التي أنا فيها، قررت مفاجأتها به فاشتريته لها، اقتربت من باب منزلي وكنت مبللة تماما لكن شعور الراحة والفرح لم يفارقاني أبدا هذا كان قبل لحظات

من دخولي البيت لأن بعد ذلك بدأ فصل جديد كتب بأحرف مؤلمة نقشت في صدري.

استقبلتني خالتي عند دخولي

- أين كنت لم تأخرت هكذا؟

- آسفة، عدت مشيا

ساد صمت لعدة ثوان حتى أنني استطعت عدها بسبب صوت عقرب الساعة الذي يطنطن في أذني في كلّ حركة له وهو يعلن عن بداية ثانية جديدة في الحياة.

- سوسن ، ...إن... لكل منا أجل مسمّى تكون فيه حياة الإنسان قد انتهت وهذه هي سنة الله في خلقه والأجمل أننا لا نعرف وقت حصول ذلك وهذا ما يزيدنا إيمانا بالله، أتعلمين -لا تقلقي لن أموت بسبب بضع قطرات ماء لامست جسدي، (ممزاحة خالتي)

- أظن ...أنه ...جاء الوقت لكي تفارقنا أريج،

- م...ال..ذي تتفوهين به ما هذا الكلام؟

نور اسمعيني...

هل تقولين أنها ماتت؟

هرعت مسرعة لمنزل أريج كانت دقات قلبي تتسارع في كل خطوة أخطوها، وقفت عند الباب وإذا بأصوات البكاء

والصراخ تعلو وتعم أرجاء البيت، كان ذلك كافيا لأعرف أن أريج قد فارقت الحياة استدرت ووقفت جامدة في مكاني أنتظر انتهاء ذلك الكابوس المرعب وأستيقظ وأجد نفسي في السرير. لكن ذلك لم يحدث، لم يحدث أبدا لم يأت أحد لإيقاظي، لم يرن المنبّه لم يكن هنالك شيء يوحي أنني أحلم، كان كلّ شيء واقعيا، عشت فعلا الصدمة بكل ما تحمله من معنى،

تتوالى الأيام ولازلت أنتظر اليوم الذي ستأتي فيه أريج وتناديني لنذهب ونتجول أو ندرس، تستمر ترانيم صوتها في أذني لم تكن تفارق مخيّلتي،

سمعت خالتي تتحدث في الهاتف مع صديقتها تشكو لها شعورها بالندم، لأنني اكتفيت بصديقة واحدة وأن هذا كان من مسؤولياتها.

و كأن ذلك كان ليعوض الفراغ الذي في قلبي،

مرّت الشهور وكنت أستجمع قواي في كل يوم أحيا فيه، إلا أن معاملة أم أريج كانت تعيدني إلى الهوة حيث تركتني صديقتي.

باتت تكرهني كرها شديدا ففي نظرها أنني السبب في حدة مرض ببلومانيا وبالتالي عدم اعتناء أريج بصحّتها مما جعلها تحمل مرض السل، لأنني كنت أحضر لها الكتب وأعلمها بأحدث إصدارات الروايات. أناقشها فيها وأقرأ معها هذا كان يأرقني أيضا، بالرغم من أن لا دخل لي في كلّ ما حدث إنه ناتج اتصال أسلاك أقدار الناس وكيف أننا نكمل بعضنا لنستمرّ في الحياة لا أكثر.

ولا زلت أهرب من نظراتها الحادة تجاهي ومن كلماتها القاسية والجارحة ما كان ينسيني همي هو إيماني بالمقولة التي تقول: «نحن جميعا سيّئون في قصة شخص ما «، كلّ

ذلك الكم من اللطف والحنان مخبأ فيك لكنك تصرين على إظهار الأسوء ما هكذا اعتدت رؤيتك و ما هكذا تعيدين ابنتك للحياة،

من الواضح أن حياة البشر قاسية نتيجة للخدوش والندبات التي يحدثها الفراق، هو يأتي على حين غفلة منا والأدهى والأمر أنه حتى لو تنبأنا بحدوثه فلن يغير ذلك شيئا، إنه قانون ثابت من قوانين الحياة كان بودي فقط أن أقول لها أن أريج تعني لي الكثير تماما مثلما تعني لها وأن أريج كانت كل أشيائي الجميلة .أظن أن كلماتي وأحاسيسي لن تصل للخالة نهى ولن تفهمها أبدا، ذلك لأنها تخلت عن حقها في الحياة ، فقدت عقلها وأصبحت مجنونة تفعل أشياء لا يفعلها العاقل، تدعي أنها ترى أناسا لا نراهم نحن. ترى الموتى على حسب قولها، صراخها في كلّ ليلة كان يهزّ القلوب ويجعلها ترتعش، مرضها زاد الطين بلة.

ذات يوم وقفت الشرطة على باب منزلنا يطلبون من خالتي التوجّه معهم إلى مخفرهم، ولأنني كنت أجهل ما يدور حولي ظننت أنها ستكون الشاهد على إحدى القضايا التي ربما كان لها شأن فيها بما أنها محامية لم أبالي بالأمر كثيرا واعتبرت ذلك جزءا من عملها.

وفي ظهر ذلك اليوم رجعت إلى المنزل وعلامات الحزن والانهيار تعلو وجهها الذي بدا شاحبا، وعيناها ذابلتان و متعبتان كنت قد أعددت المعكرونة والسلطة و اشتريت بعض الفراولة من عند الفكهاني الذي بجوار منزلنا، وجلست أشاهد التلفاز حتى حين عودتها جلسنا على مائدة الغداء، ولم تتفوه إحدانا ببنت شفة أكملنا، وهممت بالوقوف حتى استوقفتني طالبة مني الجلوس لتتحدث معي في موضوع.

- سوسن، ماذا لو أن الشخص الذي وثقت به وكان قدوتك ومصدر قوتك فعل شيئا سيئا لك، هل ستبقى مكانته ونظرتك تجاهه جيدة؟ مع العلم أنه شخص عزيز عليك.

- قلوبنا لا تتصرف كما يريد عقلنا لذلك أظن أن مكانته عندي ستبقى برغم الخيبة.

_أرحتي بالي حقا.
خالتي، هل هنالك ماتخفينه عني؟ فلقد أصبحت عاطفية جدا هذه الأيام،
_ كل ما في الأمر أنك ستبقين لوحدك مدة من الزمن يبدو أن قدرك أن يتخلّى عنك الناس وتكملي حياتك لوحدك، لكن هذا لن يكون سببا في انهيارك صدقيني،
قالت هذه العبارات وحملت حقيبتها وغادرت البيت مسرعة وأنا وقفت أعيد شريط ماقالت لعلي أفهم شيئا،
بعد بضع دقائق أرسلت إلي رسالة نصية تخبرني فيها أنها ستزج في السجن لسنوات، وأنها أوصت والد أريج بالاعتناء بي ريثما أنهي دراستي وأصبح قادرة على التكفل بنفسي وأشارت إلى أنها تركت لي مبلغا من المال في خزانة غرفتي.
أسرعت إلى الخارج أبحث عنها، كنت كالمجنونة أصرخ باسمها وأعبث بأرقام الهاتف لأتصل بها
غادرت و تركتني، أدركت مقدار ضعفها بعدم قدرتها على مواجهتي أكان من اللازم أن تتركني معلقة هكذا؟ لم تخبرني بسبب اعتقالها ولا مدة ذلك وهل أنتظرها؟ ماذا سيحدث لي؟ تمنيت حينها أن يتوقف عقلي عن التفكير أو أن أفقد الذاكرة يكفي فقداني لوالدي، يكفيني ما أعيشه وكيف أسعى

جاهـدة للتأقلـم مـع وضعـي، أنـا حقـا لا أعلـم مـا الخطـأ الـذي ارتكبتـه لأعاقـب بهـذه الطريقـة بـدأ أحبائـي يتناثـرون كأوراق الشـجر في فصـل الخريـف قامـوا بعـد ذلـك بأيـام بحجـز بيـت خالتـي ولأنهـا أوصـت السـيد غسـان بالاعتنـاء بـي عمـل الـلّازم ووقـف معـي، سـاعدني في نقـل حاجيـاتي ومكثـت في غرفـة صغيـرة لكـن لا بـأس بهـا،

اسـتلقيت علـى سـريري في تلـك الليلـة، اسـتدرت للجهـة المقابلـة للحائـط، ووضعـت جبهتـي ويـدي اليسـرى عليـه ليكـون متكئـي، بقيـت سـاكنة لبضـع ثـواني كانـت كافيـة لأحـس بمـدى صلابـة وقـوة الجـدار ومـدى ضعفـي وهشاشـتي في تلـك اللحظـة.

أن تجعـل الجـدار سـندك في لحظـات الانهيـار أفضـل بكثيـر مـن أن يكـون البشـر سـندك في ذلـك الحيـن،

يصعـب الأمـر كثيـرا بوجـود الخالـة نهـى، بـل ويصعـب التنفـس حتـى تلقـي بكلماتهـا الجارحـة في كل وقـت، وصـار صراخهـا أقـرب إلـى أذني ممـا كان عليـه سـابقا.

كنـت أبيـت الليـل سـاهرة دون أن يغمـض لـي جفـن، أنـام حيـن تشرق الشمس وتهدأ الخالة نهى وتنام،

قـد يسـتطيع المـرء التأقلـم مـع الأحـداث السـيئة ولـو سـقطت

كل هموم الدنيا عليك فإنها لن تهزك بوجود أحبائك قربك، كانت لدي عائلة، خالتي وأريج والخالة نهى، تبخر كلّ شيء، في كل ليلة أقف على نافذة الغرفة وأنظر إلى السماء وأعود بشريط ذاكرتي للوراء، سلسلة من الأحداث الماضية تتضارب في عقولنا ولو أننا شهدنا الحرب العالمية الثانية ما كانت لتحدث الخراب بداخلنا مثلما فعلت تفاصيل هذه الذكريات، أعجز فعلا عن تفسير ما حدث، لا أجد إجابة لأي تساؤل يخطر ببالي،

أهذا كل ما استطاعت خالتي فعله؟ هل يفي أ نها غادرت حياتي دون أن تترك لي سببا لذهابها؟ أم كان عليها إخباري ؟ كذبت علي حين قالت أنها ستعود بعد مدة وإن كانت طويلة، فوالد أريج أخبرني ألا أنتظرها.

على الراحلين أن يرحلوا وعلى الباقين ألا ينتظروا، هذا كان شعاري نحو شق طريق جديد أسميته الاستقرار أو الموت.

كان علي أن أنسى آلامي و أضمد جراحي وأستنشق الحرية المعطرة بعبق السعادة وأولى الخطوات كانت... هروب.

نامت الأصوات بحلول الفجر و لم أعد أسمع شيئا سوى شهيقي وزفيري وازداد ذلك مع زيادة خفقات قلبي بسبب الخوف الذي أصبح لا يطاق وكاد يخنقني لولا أنني حملت حقيبتي وبدأت أمشي بخطوات ثابتة لا يسمع لها صدى ورحت أتختّل متجهة نحو باب الخارج حيث تكمن الحرية، وأتخلص من مرارة العيش في هذا السجن الرهيب.

كان الوقت يمرّ ببطئ شديد جعلني أرتجف وأحسّ بقدميّ باردتين، بدأت أقترب من الباب شيئا فشيئا، ولم يبق سوى القليل لألامس المقبض، وفجأة رأيت شبح شخص يقف بيني وبين الباب وتوقف قلبي حينها عن النبض و أحسست أنها النهاية وأدركت أنني إما سأموت بطعنة سكين من قبل والدة أريج أو أنني سأموت قهرا في هذا البرج الكئيب الذي يذكرني بقصة روبانزل، على الأقل هي ساعدها شخص للنجاة بحياتها، ماذا عني أنا؟

سقطت دمعة من عينيّ وبدأت أحلامي تسقط أمام مرأى ناظري وتهشم سبعين ألف قطعة،

– هل أنت هاربة؟ إلى أين ستذهبين؟ وفي هذا الوقت؟

تفاجأت بالصوت الذي ألقى إلي بهذه الكلمات وظننت أنني أتوهم لولا أن نورا خفيفا بعثته الشمس لينعكس على وجه

الشخص الذي استوقفني فتتبين ملامحه لي،
يا إلهي إنه جواد؛
وقفت جامدة وحائرة و لم تكن لي أي طاقة لأجيب عن تساؤلاته، أو أن أبين ردة فعل فأنا عن نفسي أجهل ما ينتظرني و ما سأكون عليه في الغد؟
- لن أمنعك من الذهاب و لن أعترض طريقك،
صدقيني لولا أن شعور المسؤولية طغى على كل مشاعري لكنت فعلت نفس الأمر الذي أنت مصممة على فعله، غير أنني كنت سأغادر في فترة الظهيرة فأنا لا أتخلى عن حصتي من النوم)قال هذا الجزء ممازحا وأظهر ابتسامة بدا واضحاأنه لاقى صعوبة في رسمها على شفتيه وأتمم قائلا (،
- من الصدفة أن أشعر بالعطش فأنهض من فراشي متجها إلى المطبخ لأشرب الماء في نفس الوقت الذي تغادرين أنت فيه هذا البيت، لا بل هو القدر فأنا لدي ما أعطيك إياه أرجوك ابقي مكانك سأعود فورا؛
-عاد ومعه مذكرة باللون الوردي قدمها لي ورحت أقلب صفحاتها الواحدة تلو الأخرى، كانت مكتوبة، باليد لكن لقلة الضوء الصادر من الخارج لم أستطع تمييز خط من.
- إنها رواية كتبتها أريج، لكن أجلها كان أقرب من اليوم

الـذي تنشـر فيـه هـذه الروايـة،
لا أعلـم حقـا لمـا أعطيتـك إياهـا لكـن بـدا لـي أنـه وجـب عليـك قراءتهـا مـن أجـل صديقتـك، وبذلـك سيكون عـدد قـراء الكاتبـة أريـج اثنـان أنـا وأنـت،
حيـن سـماعي لقـول جـواد عرفـت كيـف أن أريـج ماتـت دون أن تنهـي طبـع بصمتهـا في الحيـاة، حينهـا فقـط مسـني الحـزن حتـى الوريـد وعجـزت عـن التفاعـل مـع كلمـات جـواد،
بقينا صامتين لثواني كانت كافية ليفكر عقلي مليا
– سأنشرها (صحت ثائرة)
–ماذا ؟؟
– قلـت سأنشـرها، أجـل سأنشـرها، مـوت الإنسـان لا يعنـي أن تكـون أعمالـه طي النسـيان سـأحيي حلـم أريـج وإن كانت روحها قـد فارقـت الحيـاة، سـتكون هـذه الروايـة باسـمها وسـتلاقي فكـرة نشـر روايـة ميـت إحسـان النـاس، لا بـل و تجذبهـم أكثـر ووينتابهـم الفضـول لمعرفـة فصولهـا،

– إنهـا حقـا فكـرة رائعـة، أحسـنت التفكيـر، أنـت حقـا وفيـة يـا سوسـن.
– أراه واجبا وليس معروفا.

- أظن أن عليك أولا تسطير حياتك بشكل لائق بعدها قومي بتطبيق هذه الفكرة، (تنحّى لي عن الطريق وهو يكمل قول (اعتني بنفسك، راسليني وطمأنيني عن أحوالك
- سأكون بخير لا تقلق سأعلمك حال استقراري،

وجهة إلى كولمار

أوقفت سيارة الأجرة متجهة إلى محطة القطارات، بدأت السحب تتكوّن في السماء حاجبة أشعة الشمس، وصلت إلى المحطة

و بدأت أبحث عن القطار المتجه إلى كولمار، صعدت القطار وجلست قرب النافذة لأحظى برؤية المناظر طول الطريق، انطلق القطار وبدأت رحلتي الأولى كفتاة ناضجة مسؤولة عن نفسها، فجأة تذكرت أمي وصوت أمي ورائحة أمي تخيلت لو أنها الآن بجانبي، كيف لي أن أخبرك بأن القهوة باتت بدونك خالية من الكافيين،

كيف لي أن أخبرك كم أن الشتاء قاس وبارد من دونك،

وأن سنابل القمح فارغة بلاك،

و أن الربيع نام و نسي موعده معنا في الواحد والعشرين من مارس.

اشتهيت عناقا في تلك اللحظة وتمنيت أن تأويني أمي في صدرها وتشعرني بتفاهة الحياة، وأن كل شيء سيهون صار لا محالة من نسيان البقاء بمدينة آنسي.

لكن من يدري لربما يعجبني العيش بكولمار لا أظن أنها سيئة، بالنهاية سأظل تحت سماء فرنسا.

غفوت قليلا وبعدها اسيقظت، فنظرت عبر النافذة لأرى إن كنا قد وصلنا أم لا؟، ولأنني لا أعرف مدينة كولمار جيدا قررت أن أسأل الشخص الذي كان جالسا أمامي طوال رحلتنا في القطار،

- عفوا سيدي هل بقي الكثير لنصل؟؟

- لا ليس الكثير، انتظري لحظة، أترين كل تلك البيوت الملونة هناك والتي تشبه ما نراه في أفلام ديزني.

- يا إلهي إني أراها تبدو رائعة فعلا،

- أجل هي كذلك إن كولمار تنبض حياة.

تجدين البيوت ملوّنة بألوان زاهية من وردي وبنفسجي وأصفر،

و تمتاز بموارد مائية متنوعة وعديدة من بحيرات وشلالات وهي مقصد السياح الذين أرهقتهم متاعب الأيام من عمل ومشاكل،

يجدون راحتهم هنا.

- بالفعل هذا ما أحسست به حين وقعت عيناي عليها في أول قدم وضعتها فيها، بعدما توقف القطار في المحطة التي نزلت فيها، وكأنك في أعماق قوس قزح من كثرة ألوانها المفعمة بالأمل والتفاؤل، رحت أمشي وأتغلغل في زقاقها الضيقة

والتي تتدلى منها الزهور بكل أنواعها وألوانها وأغصان الأشجار التي بات النسيم يداعبها، بدت وكأنها تنحني لي مرحبة بقدومي تفاعلت مع هذا الموقف الخيالي ورحت أزيد من استنشاقي للأكسجين وأنا أدعو من أعماق أعماقي أن أجد الخالة منيرة وأن أكون جزءا من هذا المكان، فلم تمض سوى نصف ساعة على وجودي في هذا المكان إلا أنني تعلّقت به واخترته أن يكون بداية لحياة جديدة مليئة بالسلام الداخلي، رحت أسأل كل امرأة أو رجل أو حتى طفل عنها في بداية الأمر صرّح لي أشخاص أنهم لا يعرفونها.

انتابني بعض الإحباط، كيف لأناس أجانب بلغة أجنبية وثقافة أجنبية أن يعرفوا طبيبة من أصول لبنانية وأن تكون ذات صيت وشهرة بينهم؟ ولربما كانت مشهورة فقط لدى أمثال أمي وخالتي كونهم ينتمون لنفس البلد الذي جاءت منه، لطالما حدثتني خالتي عن السيدة منيرة إنها عجوز طاعنة في السن لكنها تمتلك صحة جيدة ونشاطا زائدا لا تصلنا بها قرابة، لكنها تعرف أمي حق المعرفة وكانتا مقربتين إلى بعض جدا، وكانت أمي تحبها كثيرا.

إنها معروفة في القرية التي تعيش فيها ينادونها بطبيبة القرية تملك من العلم الكثير تداوي بالأعشاب كونها تعرف الكثير

عن النباتات واستعمالاتها في العلاج،
ولأنني لا أعرف في هذا البلد شخصا غيرها قررت أن ألجأ إليها لعلها تساعدني،
الآن وفي هذه اللّحظة لا يسعني سوى مواصلة البحث.
رحت أواصل السير والسؤال حتى مرت حوالي أربع ساعات وأنا على ذلك الحال،
لاحظت و جود الزوارق والقوارب بكثرة في إحدى البحيرات الكبيرة الموجودة هناك، بعض من يركبونها يبدو من وجوههم أنهم سياح بحيث يستمرون في مشاهدة المناظر والاستمتاع بذلك،
حلّ المساء وبدأت الشمس تختفي من وراء التلال الخضراء التي اكتست باللّون البرتقالي وبدأ الظلام يسدل ستاره على مدينة ديزني، غير أن أضواء أعمدة الإنارة المنتشرة في الشارع راحت تطرد تلك الظلمة التي كانت جميلة لولا أنها موحشة في نظري كوني بلا مأوى حاليا.
أحكمت زمام أفكاري ورحت أمشي لعلي أجد من يعرف السيدة منيرة، تعبت وشعرت بجوع شديد اشتريت سندويشا وواصلت،
- سيدتي هناك طبيبة اسمها منيرة كبيرة في السن هل تعرفينها؟

- السيدة منيرة أجل أعرفها جيّدا وسكنها ليس ببعيد من هنا، واصلي المشي على طول هذا الطريق ستجدين في نهايته مفترق طرق،

استديري يمينا المنزل الثاني هو منزلها بالذات،

- شكرا لك،

رحت أسرع في المشي وقد نسيت كلّ تعبي وأنا على شوق للقائها، استدرت يمينا واتجهت نحو المنزل الثاني، كان مبنيا من القرميد كباقي المنازل هناك، وكان مصبوغا باللون الأرجواني وكانت نوافذ ذلك الصف من البيوت تطل على بحيرة محاطة بسياج خشبي متقن النقش.

وقد زادت الأنوار المنعكسة على المياه المنظر رونقا، بالإضافة إلى بعض الإوزات التي تسبح في تلك البحيرة كأنها ملكة على عرش كولمار.

اعتلتني قشعريرة في جسدي وبدأت أتخيّل رفضها مساعدتي والوقوف معي في محنتي،

فأنا حاليا أمرّ بموقف أتمنى فيه لو أن الجدران والحجارة تساندني وتخفّف عني.

طرقت الباب الخشبي وما هي إلا لحظات حتى بدأت أسمع وقع أقدامها من خلف الباب بدا الوقت طويلا حينها .

فتحت الباب ووقفنا نتبادل النظرات للحظات،
لـم أسـتطع كسـر ذلـك الصمـت بالرغـم مـن أننـي كنـت قـد حضـرت مقالـة طويلـة وعريضـة لألقيهـا عليهـا، كانـت بعنـوان احتوينـي أرجـوك،
- أهلا بنيتي كيف أساعدك؟
- أهلا، أنا اسمي سوسن وأكون ابنة السيدة مرام.
الطبيبـة التـي توفيـت إثـر حـادث مـرور مـع زوجهـا، هـل تذكرينهـا؟؟
- آه يا إلهي مرّ وقت طويل، لقد كبرت وأصبحت شابة.
ارتسمت ابتسامة على وجهي ، من الجيّد أنها تتذكرني
- تفضلي بالدخول هيا،
راحت تسألني عن أحوالي و أحوال خالتي وهي تقوم بإعداد الشاي وأنا لم أكن من المختصرين في حديثهم، فلقد كنت في أمس الحاجة لشخص أحكي وأفضفض له،
أخبرتها بشأن خالتي ثم موت أريج ومرض الخالة نهى وكيف أني صرت وحيدة، ولم أرد اللف والدوران، بل أخبرتها بسبب مجيئي إليها وقد فاجأني ردها السريع،
- بيتي مفتوح لكلّ شخص محتاج يا سوسن فمابالك لو كنت أنت يا ابنتي،

بالمناسبة اسمك جميل، سوسن هو اسم زهرة جميلة تنمو حتى بالرغم من الظروف الصّعبة،
رحت أبكي كالطفل الصغير وقد ضمتني إلى صدرها و راحت تخفّف عني، أحسست بدفئ وحنان لم أشعر بهما منذ زمن.
الخالة منيرة كانت الفارس المنتظر، الفارس الرّاكب على حصان أبيض كما يقولون، كانت بصيص الأمل الذي لطالما انتظرته.
– سوسن يبدو أنك متعبة جدا من السفر، تعالي معي أدلّك على غرفة في الطابق الثاني ستبيتين فيها هذه الليلة وسأطلب من السيد جون أن يصنع لك سريرا جميلا غدا، إنه يعمل نجارا.
قامت ببسط فراش على الأرض ووضعت فوقه وسادة و غطاء صوفيا،
سأكمل تحضير العشاء وسأناديك بعد حين،
سيكون عشاء تعارفيا بيننا، بما أننا سنعيش معا، فلا يجب أن تكون حواجز بيننا.
قالت هذا وهي تبتسم وغادرت الغرفة دون أن تترك لي مجالا لأعبّر لها عن مدى امتناني لها.

لـم أتخيـل أن يكـون الأمـر بهـذه السـهولة والبسـاطة، فأنـا التـي أعيـش التعقيـد في حيـاتي. كيـف لهـذا أن يحـدث لـي الآن؟ نظرت مـن النافـذة ورحـت أتأمـل المدينـة ليـلا تبـدو يوتيوبيـة بحـق.
تناولنا العشاء وتحدثنا مطولا تلك الليلة،
بعدها هممت بالخلود للنوم.

في صباح اليوم التالي استيقظت باكرا وبقيت أتقلب في فراشي وأرى إن كان ما أعيشه الآن حقيقة أم مجرد طوباويات لا أكثر، غريبة هي الحياة ففي كل يوم نخطو خطوة داخل نفق المستقبل فيفقد ميزته بحيث يصبح جزء من الماضي، ويحدث كل ذلك دون وعي منا بأننا نمر وفق مراحل مختلفة في مسار الزمن.
غريب أيضا تعامل البشر مع بعضهم البعض وسهولة التعايش بينهم بالرغم من كل الغموض والخبايا التي يخبئها الواحد عن الآخر لسبب أو لغير سبب.
توالت الساعات والأيام و بدأت أتأقلم مع الجو العائلي الجديد، فهذه ليست أول مرة أغيّر فيها محيطي الأسري جذريا، إنها رابع مرة وإن كانت ثالثها قصيرة وغير مرغوب فيها من قبلي وقبل والدة أريج.
صرت لا أخجل من طلب شيء من الخالة منيرة وصرنا مقربتين جدا ونتبادل الأحاديث والأسرار ونقوم بالواجبات المنزلية معا، وحتى أنني استفدت من معرفتها الوافرة فيما يخصّ الطب ومختلف استعمالات النباتات في هذا المجال.
شيء آخر لفت انتباهي هو نوعية الأثاث وديكور المنزل، فاللّمسة اليابانية بادية في نوعية الأفرشة والأثاث
- خالة منيرة !!

- أجل يا عزيزتي،
- في الواقع أردت سؤالك عن تلك الصور،
كانت هناك خزانة قد وضعت فوقها ماتريوشكا وبعض التماثيل التذكارية وصور موضوعة في إطارات أثارت انتباهي، إنهم مجموعة من الرجال يلهون مع بعضهم ويضحكون بينما أحد ما قام بتصويرهم تلقائيا،
- أترين الرجل الذي يحمل السمكة هناك؟ إنه زوجي كان يعمل صائد سمك وقد كان متعلّقا جدا بالبحر، لأنه يذكره بالسفر بالبواخر والعودة إلى الوطن.
- لماذا أهو مغترب أيضا؟؟
- أجل فكما ترين عيناه تقولان أنه ليس من هنا، إنه من أصول يابانية.
ولا بد أنك لاحظت أن جل الأشياء في بيتي ذات لمسة يابانية، سوسن تعالي لغرفتي سأريك شيئا،
- آه أجل.
فتحت الدولاب الموجود في غرفتها وأخرجت منه فستانا أبيض مليئا بالورود الزرقاء،
- هذا لباس ياباني تقليدي اسمه اليوكاتا يرتدونه في موسم الصيف فقط لقد كان هدية من زوجي.

بغيابه كنت أتعاطى النوم لأنسى، شيء ما داخلي كان يصرخ باستمرار. لكنني فعلا لم أنكسر، بالنهاية أنا لست وعاء من طين هههه...

أخرجت ضحكة قصيرة بصعوبة وواصلت

كان صيادا ماهرا إلا أنه عزف عن هذه المهنة في أواخر سنواته، أتعلمين، موته علّمني أن أجمل حق يتشاركه جميع الناس هو غيبية الموت، فلو كنت أعلم أنه يوما ما سيموت ويتركني ما كنت لأسعد بالأوقات التي قضيتها معه.

كلامها ذكّرني بكلام خالتي، كما وجعلني أعي أن علي أن أشكر الله على اللحظات التي عشتها مع من عرفتهم وفارقوني في كلّ مرة كنت أفتقد فيها، كنت أشعر برجفة في قلبي أشعر وكأنه متجمد وبارد ينتظر مني أن أدفئه لكنني لم أكن أستطيع، أدركت أنه علي أن أنظر فقط إلى الحاضرين في حياتي قبل أن تذروهم الرياح، فمشكلة الخوف من الفقدان بات عليّ أن أعالجها بالاستمتاع مع من هم حولي الآن؟

بعد مرور سنوات قمت بمراسلة جواد وإخباره أنني على أحسن ما يرام، أخبرته بكل ما مرّ معي من لحظة مغادرتي لآنسي وصولا إلى كولمار وما نتج من أحداث أثناء إقامتي لدى السيدة منيرة،

أخبرني أن والدته زاد حالها سوءا إلى أن دخلت إلى مستشفى الأمراض العقلية وفارقت الحياة هناك، كان ذلك بعد هروبي بأشهر.

صدمت كثيرا وحزنت للخبر المؤلم وشعرت بالأسف تجاه جواد وكيف أنني لم أتواصل معه مسبقا لمواساته والوقوف إلى جانبه،

لكنه أضاف أنه الآن بخير وقد تأقلم هو الآخر مع حياته الجديدة. وأن والده عاد لممارسة عمله بالشركة وأنه هو أيضا بدأ بالاهتمام بدراسته وحياته.

كما وتعلم الطبخ ليساعد السيد غسان.

صارحني بأن العيش بذلك السكن بات موحشا، وأنه سيفاتح والده بموضوع تغيير السكن.

حتى يتسنى لتلك الأحزان أن تبيد، كما ويذهب بشكل منتظم إلى قبر والدته وأخته ليضع على قبر كلّ منهما إكليل زهور.

واصلت دراستي الجامعية على مرّ السنوات التي قضيتها في كولمار.
كما وكانت لدي نشاطات أقوم بها،
فقد عدت إلى قراءة الكتب والروايات.
وكنت أشارك الخالة منيرة عملها طبعا ليس بصفة كلية ولكنني تعلّمت فوائد واستعمالات بعض النباتات، والزهور، مثلا توجد نبتة اسمها إكليل الملك تنمو تقريبا في أغلب منحدرات أوروبا تستعمل في الصناعات الصيدلانية كمرهم و تعالج التهاب الأوردة، ولكن الإكثار منها يؤدي إلى مضاعفات خطيرة ولا ينصح باستعمالها إلا بعد استشارة طبية.

تقيم فتاة بجانب الخالة منيرة تدعى ويندي.
تدرس في معهد لتصميم الأزياء وبارعة في الرسم أيضا، حلمها أن تصير مصمّمة أزياء عالمية.
إنها فتاة مقعدة لا تقدر على السير، أصبحت أنا وهي صديقتان، أظن أنه حان الوقت لبداية علاقات اجتماعية جديدة.
كنا نخرج معا باستمرار للتجول في ضواحي المدينة، زرنا

متحف أونترليندن يحوي لوحات قيمة من العصور الوسطى حتى عصر النهضة، أخبرتني ويندي أن النحّات فيريديريك أوغست بارتولدي الذي قام بنحت تمثال الحرية في نيويورك ينتمي إلى مدينة كولمار.

وذهبنا معا إلى عدة حدائق ومقاهي ومكتبات وكنت أستمتع بالمشي على الطرقات المصنوعة بالحصى الصغيرة، تحس وكأنك تمشي على قطعة شوكولاطة عملاقة مليئة بالبندق.

حسنا الآن دعوني أخبركم بما أخبرتني الخالة منيرة، أخبرتني بأن زوجها علّمها شيئا، إنه الإيكيغاي

هناك شيء تحبه؛ وهناك شيء يحتاجه العالم؛ وهناك شيء يدرّ عليك المال؛ وهناك شيء تبرّع به،

إن اندماج الشيء الذي تحبه مع ما يحتاجه العالم يسمى بالمهمة بينما اندماج الشيء الذي يحتاجه العالم مع الشيء الذي يدرّ لك المال يدعى بالحرفة، والشيء الذي يدرّ لك المال مع ما تبرع به هو المهنة، أما ما تتبرّع به وفي نفس الوقت تحبّه فهو الشغف.

المهمة والحرفة والمهنة والشغف هم ما يرتكز عليهم مفهوم الإيكيغاي،

إنه أسلوب ياباني يعتمده اليابانيون للوصول إلى مفهوم السعادة، فالسعادة في نظرهم أن تشغل وقتك بالعمل وتجتهد في فعله .

قرّرت أن أطبق مفهوم السعادة في حياتي،

تخرّجت أخيرا وبدأت العمل في مجال الإذاعة كبداية ومن ثمّ أصبحت أعمل في مجال التقديم، وأصبحت منشطة حصص و برامج ومشرفة على البعض منها أحيانا.

قمت بتقديم برنامج يتحدث عن الكتب وموضوع القراءة بصفة عامة وطبعا انتهزت الفرصة للحديث عن رواية أريج التي قمت بنشرها والترويج لها تحت اسمي أنا، لكن لم أخف أنني مجرّد وسيط بين هذه الرواية وبين الكاتبة التي فارقت الحياة، لاقت الرواية إعجاب الكثيرين وكان هذا حافزا لي لمواصلة مشواري بالحديث عنها. أصبحت أكثر سعادة بجعل حلم أريج حقيقة.

-مرحبا،

-أهلا كيف الحال،

- بخير وأنت.

- بخير، كيف تجري الأمور معك؟

- أشعر ببعض الملل والتعب من ضغوط العمل.

سأسافر في نهاية الأسبوع

- فعلا ، إلى أين؟

- إلى كولمار.

- هذا رائع، إذن سأكون دليلتك ومرشدتك.

- هههههه يسعدني ذلك، إذن أين تودين أن نلتقي؟
- في محطة القطار ومن ثمّ سنزور أماكن جميلة أعرفها، وسآخذك إلى مطعم دونر إسطنبول، إنه مطعم يقدم أكلات تركية هنا في فرنسا إنها أقرب إلى أكلات الجزائر، لنسترجع طعم الأصول هههه...
- حسنا آمل أن يكون كل هذا على حسابك، يكفيني دفع ثمن التذكرة ذهابا وإيابا.
- أيها البخيل تعال ثم نتناقش في هذا الموضوع.
- هههه أمزح، إذن موعدنا الخميس القادم،

خالتي أنا ذاهبة إلى محطة القطار
ماذا ؟ لماذا ؟
سألتقي بجواد إنه قادم إلى هنا
آه حسنا مرّا علي لاحقا،
-حسنا إلى اللقاء.
ذهبت في صباح ذلك الخميس إلى المحطة، كنا قد اتفقنا على أن نلتقي على الساعة التاسعة.
بقيت هناك أنتظر حتى التاسعة والنصف حينها اتّصلت به لأعرف سبب التأخير إلا أنه لم يرد، حاولت مرارا وتكرارا لكن دون جدوى، جلست هناك في المحطة حتى الساعة الحادية عشر بعدها غادرت،
كنت منزعجة جدا وفي نفس الوقت انتابني الشك من هذا الموقف، أعدت الاتصال مرة أخرى، وحين لم يرد قمت بإطفاء الهاتف.
رحت أمشي وأتسكّع ودخلت عدة محلات لأرفّه عن نفسي وأنسى ما حدث، لكن لم يكن ذلك ليحسّن من حالتي، عدت إلى المنزل على الساعة الواحدة ظهرا،
فتحت الباب و إذا بي أرى أحذية عند الباب.
إنهم ضيوف، مزاجي لم يكن يسمح لي برؤية أحد أو التحدث

معـه، خلعـت حذائـي وصعـدت مباشـرة إلـى غرفتـي سـمعت الخالـة منيـرة صـوت البـاب فتبعتني مباشـرة إلـى الغـرف.
سوسن غيّري ملابسك وارتدي فستانا جميلا هيا أسرعي، ماذا؟ ماذا هناك؟؟
أتاك خاطب.
– هـل تمزحيـن، لسـت بحالـة جيّـدة لسـماع النكـت، يـا إلهـي مـا هـذا اليـوم؟
– أقسم أنني أقول الصّدق هيا فلتسرعي رجاء،
خالتي أنـا حقـا لا أفكـر بالارتبـاط ثـم مـن يكـون هـذا الشـخص؟ وكيـف يعرفني؟
سـأخبرك لاحقـا اذهبـي لرؤيتهـم الآن، وبعدهـا نتناقـش ولـك الحريـة في أن ترفضي، إنهـم ينتظـرون منـذ الصبـاح ثـمّ إن هاتفك كان مغلقـا مـا جعلهـم ينتظـرون أكثـر،
– حسنا سآتي.
– ارتديـت فسـتانا وقمـت بتسـريح شـعري علـى عجـل، و نزلـت تنفيـذا لرغبـة الخالـة.
دخلـت بـاب غرفـة الجلـوس في اسـتحياء ورفعـت رأسـي لأرى الضيـوف،
كان هنـاك شـاب وسـيم يجلـس بجانبـه رجـل كبيـر في السـن،

الملامح مألوفة النظرات نفسها، الهيئة والابتسامة، إنني أعرفهم حق المعرفة يا إلهي، إنه جواد والسيد غسان. احمر وجهي وبدأت أرتعش من الدهشة، كان يوما سعيدا حقا، أشارت لي الخالة منيرة بأن أجلس بجانبها،

رحنا نتجاذب أطراف الحديث من سياسة وأوضاع البلاد ، تحدثنا عن الأكل وعن العمل، كنت سطحية في المشاركة في تلك المواضيع. انتظارا للموضوع الرئيسي والمهم في هذه الجلسة،

حلّ الليل و عادا إلى ديارهما بعد أن أظهرت موافقتي دون تردد.

أسرعت إلى ويندي لإخبارها بما حدث معي لتشاركني الفرحة هي الأخرى، وبتنا نحيك أحداث المستقبل، أحضرت أوراقها وقلم رصاص، وبدأت ترسم لي فستانا لتخيطه لي يوم زفافي ورحت أخبرها بتفاصيل الفستان و كيف أريده أن يبدو.

هبّت الرياح وحملت معها بذور الزرع المتناثرة على الأرض وحبوب الطلع، وبعض أوراق الشجر التي باتت تتطاير هنا وهناك ترقص على أنغام الرياح، والأشجار تتمايل وكأنها تحييها وتشجعها على رقصها، ومع كل هذه التفاصيل تفاصيل جواد وحدها كانت بادية أمامي فالرياح أتتني محمّلة بحنانه وحبه اللذين أنقذاني من وحدتي وشجوني، روح طاهرة تراقصت على هوامش حياتي لتجعل أعماقها أجمل و أحلى.

اختصر الله فيه أسمى معاني الخير.

لن يكون هذا الكلام هو تعبيري له عن شكري،

فشكري سيكون بدعائي له.

تزوّجت بجواد ودق جرس الفراق مجددا معلنا رحيلي من المدينة التي تعلّقت بها، ومغادرتي من المنزل الذي رممت فيه حياتي تاركة ورائي صديقتي ويندي وخالتي منيرة.

خالتي منيرة

في مطلع عشرينياتي وبينما أنا أتسلق تلّة المستقبل لمحتك واقفة أعلاها تلوّحين لي براية بيضاء، كانت في زمن مضى ترفع أثناء الحرب لتعلن عن الاستسلام، لكنك عنيت بها السلام واستلام شعلة النجاح والفرح في حياة لطالما انتظرنا أن تكون هذه تفاصيلها.

إنني لشاكرة للقلوب التي تحوّلت لأجلي إلى أيادي لترفعني عاليا فيلامسني الريح، لأرتفع وأحلّق عاليا نحو عالم لا زوردي يأبى إلا أن أكون أنا جزءا منه.

لطالما ركضت بين أروقة الحياة بحثا عن الحب أنظر هنا وهناك لعلي أرى وميضا منه فلقد أخبروني أن الحب كالشمس يدفئنا حين تمطر أيامنا حزنا وشقاء.

حين غبتي عن ناظري أيقنت أنك الحب أتى لي على صورة أميرة اسمها أريج.

فراقك علّمني أن الحب لا يأتي دائما في هيئة شاب وسيم وطويل ذو عينين حادّتين مثقف ورومانسي، بل قد يكون في هيئة صديقة سقطت في حياتنا كسقوط بيلي في رواية فتاة من ورق.

أقوم بممارسة روتيني كل يوم فأصادف مواقف تذكرني بك أقف مكاني وأرسم ابتسامة على وجهي، وفي بعض الأحيان ضحكة تتزعزع لها الكرة الأرضية حين تذكري لطرائفنا أنا وأنت، وكيف أن اليوم كان يمضي معك خياليا لكثرة جماله أو لكثرة الخيال الذي كنا نتشاركه؟ ونحن ننسج أحلامنا التي كانت ولا تزال حية فينا لأنها سقيت بترياق الطموح وعدم الرضوخ لأي عائق يقف أمامنا.

سعيدة أنك كنت ببلومانية و لم تكوني ببلوكلبتومانية .

ببلوكلبتومانيا :داء الولع بالكتب لحد سرقتها .

النهاية